رحلة إلى الغد مع توفيق الحكيم

حاتم نصر فريد

إذا أحس أحد من خلال ما أكتب هذه المرة أن إعجابى ظاهر بالكاتب والمفكر المصرى الكبير توفيق الحكيم ، فهذا الإحساس صحيح ، لأنى لا أخفى هذا الإعجاب . . ولا أحاول . . إنما أعترف به منذ اللحظة الأولى ، ولا أتحرج فى ذلك . . فلدى الأسباب ، والإعجاب يختلف عن الحب . .

فبينما نحن نستطيع أن نمارس الحب فى غيبة العقل ، فإن الإعجاب لا يمكن أن يحدث بعيدا عنه . . لأن الإعجاب لابد أن تكون له أسبابه المنطقية ، وإن لم يمنع ذلك بالنسبة لتوفيق الحكيم ، من وجود أشياء أخرى فى إعجابى به لا تدخل من باب العقل ، وإنما تنساب من خلال المشاعر . .

باختصار شديد فإن إعجابى بتوفيق الحكيم هو مزيج من الإعجاب ومن الحب . .

وتوفيق الحكيم هو الرجل الباقى من جيل العمالقة الأول ، ذلك الجيل العظيم الذى ضم : عباس محمود العقاد وطه حسين ومحمد حسين هيكل . . وغيرهم . . وهذا تولد فى عقل منذ سنوات عديدة مضت ، ولع شديد بالالتقاء به عن قرب ، بعد أن التهيت به وعايشته وتنقلت معه عبر صفحات كتبه الشهيرة .

ولم يكن لقائى به سهلا ميسورا . . !

لقد حاولت ذلك عدة مرات ، وفى كل مرة أعترف بأننى كنت افتعل مناسبة أو سببا للقاء ، وفى كل مرة كان يفلت منى ، إلى أن حدث أنى كنت على موعد مع نجيب محفوظ والدكتور حسين فوزى ذات يوم قبل ست سنوات مضت ، وكان مكان اللقاء هو : مكتب توفيق الحكيم بمبنى الأهرام ، تلك الحجرة التى هى ملتقى كبار كتابنا ومفكرينا .

ولست أدرى إذا كنت أنا الذى ذهبت مبكرا عن موعدى أم أنهما - نجيب محفوظ وحسين فوزى - قد تأخرا عن موعدهما ، فقد ذهبت ولم أجدهما . ولكنى وجدت توفيق الحكيم جالسا وحده فوق كرسيه المتحرك فى حجرة مكتبه شاردا بفكره ، ولا أدرى إلى أين كانت ذاهبة الأفكار . واستأذنته وأذن . .

وهكذا وجدت نفسى فجأة ، وبلا سابق موعد ، وجها لوجه معه . . مع : توفيق الحكيم !

شعرت وقتها بأنى أعيش لحظات من صنع القدر ، فبدأت أرتب الأفكار فى رأسى بسرعة ، وأستجمع كل ما عندى من شجاعة العقل ولباقة القول . وفتحت الحوار معه ، وكان على النحو التالى :

- فرصة سعيدة جدا هذا اللقاء الذى صنعته صدفة خير من ألف ميعاد . كما يقولون ! . . كانت رائعة جدا سلسلة مقالاتك الأخيرة « حوار مع الكوكب » . . لقد كانت قطعة فلسفية أدبية تنبض بالواقعية فى إطار من الإبداع والخيال . . لقد فجرت من خلالها العديد من القضايا والحوار . .

توفيق الحكيم : (لا يرد)

- تصور أن هذه المقالات شجعتنى هذه الأيام على البدء فى كتاب جديد فكرت فيه منذ فترة ، وهو عن مخ الإنسان . ولكنه فى صورة خيالية أحاول فيها أن أجعل المخ هو الذى يكتب ويوجه حديثه للإنسان ، كما فعلت فى سلسلة مقالاتك مع كوكب الأرض . . إنها محاولة جديدة لمزج العلم بالأدب . . ما رأيك ؟ يبدو أنك مشغول هذه الأيام بعمل رائع و . . .

توفيق الحكيم (مقاطعا) : ماذا تريد ؟ . .

- دون أن أتجاوز . . أريد أن أثرى عقل وفكرى بآرائك العميقة وأفكارك المتجددة ، فأنا واحد من الجيل الذى تأثر كثيرا بك و . . .

توفيق الحكيم : طيب هات ٢٠٠ جنيه . . !

- لماذا ؟

توفيق الحكيم : لأن الكلام الذى ستقوله لك ، يمكنك أن تكتبه وتنشره فى أية صحيفة عربية وتتقاضى عنه مبلغا لا يقل عن ٢٠٠ جنيه . . هات بقى ٢٠٠ جنيه . . ؟ !

هكذا كان لقائى الأول معه . . ؟ !

ثم مضت شهور وشهور

واتيحت مناسبة أخرى ، واتصلت به تليفونيا فى مكتبه ، وجاء صوته الذى لا تخطئه أذنى على الطرف الآخر للتليفون قائلا :

توفيق الحكيم مسافر ولن يعود قبل شهور . .

- من سيادتك ؟

توفيق الحكيم : أنا سكرتيره . . ؟ !

وفى اليوم التالى ذهبت بنفسى إلى الأهرام ، وعرفت أنه موجود وليس مسافرا ، فاتصلت به تليفونيا ، وتجرد سماع صوته بادرته قائلا : أهلا يا أستاذ توفيق . . كيف أحوالك . . أرجو أن تكون بخير وصحة . .

توفيق الحكيم : الحمد لله . .

- هل تأذن لنا فى لقاء فى الوقت الذى يناسبك ؟

توفيق الحكيم : من الذى يتكلم ؟ !

عرفته بنفسى . .

توفيق الحكيم : الله . . ألم أقل لك أمس إنى مسافر ؟ . . أنا مسافر يا ابنى . . ! ! !

وأدركت أن السفر سوف يطول . . ؟ !

ومضت شهور أخرى عديدة . .

وفى أحد معارض فنان مصر العظيم صلاح طاهر ، التقيت به مرة أخرى مصادفة أيضا ، ولكن هذه المرة يبدو أن مزيج الألوان الساحر على اللوحات الرائعة لموسيقار الألوان صلاح طاهر قد أضفى جوا رومانسيا خلابا ، تسابت نفحاته عبر المشاعر والوجدان ، وأخذت أتأمل توفيق الحكيم وهو يحلق مع الألوان . . يحوم حولها ويغوص فيها . . !

وبعد هذه الرحلة الساحرة مع اللون والنغم أدركت أن الفرصة مواتية لفتح الحوار وبالفعل تحقق ما أردت . .

وبدأ الحوار . . .

وتعددت اللقاءات . . وأخذت أتردد عليه من وقت لآخر . .

وأصبح توفيق الحكيم بالنسبة لى واحة خضراء أنهو إليها النفس من وقت لآخر ، بعد رحلة قاسية وسط صخور الحياة ورمالها الملتهبة وجزيرة أمان يستقر على صدرها العقل ، وينطلق من فوقها الفكر متأملا متجددا إلى كل الاتجاه . .

فاجأنى ذات مرة بقوله : إننى واحد من

المهتمين بالعلم والتغيرات التى أحدثتها الثورة العلمية . أريد أن أعرف – فى رأيك – إلى أى مدى ذهبت هذه التغيرات فى تأثيرها . ؟

ولم أعرف – استحياء – ماذا أقول للرجل الذى امتد فكره بالتأثير فى جيل كامل . بل امتد إلى رحاب الفكر الإنسانى كله .

وبعد لحظات من التفكير قلت له : إن ذلك موضوع طويل ومتشعب . أرجو أن تأذن لى بعض الوقت حتى أعيد قراءاتى وترتيب أفكارى ، لكى أستطيع أن أعد رأيا متكاملا يليق بتقديمه إليك . فالعلم أثر فى كل شىء فى حياة الإنسان اليومية المعاصرة ، بل امتد إلى فكره وقيمه ومثله العليا ، حتى الأفكار الأساسية التى قامت عليها المجتمعات واستقرت لقرون طويلة . ويستطيع أن نسميها « الرواسى الرواسخ » . هذه الأفكار هى الأخرى تعرضت تحت تأثير الثورة العلمية الحديثة لهزات عنيفة . إن الموضوع طويل ومعقد . . !

ثم قلت له مداعبا : كان مفروضا أن أبادرك بهذا السؤال – تفضلا عن أنى صحفى وجزء من مهنتى هو توجيه الأسئلة وتلقى الإجابات . فقد قرأت منذ سنوات كتابك الرائع « رحلة إلى الغد » الذى قدمته منذ نحو ربع قرن أو بالتحديد فى سنة ١٩٥٧ . وفيه تخيلت شكل مجتمع المستقبل بعد ٣٠٠ سنة ، أى حوالى سنة ٢٣٠٠ ميلادية . لقد بلغ من ولعى الشديد بهذا الكتاب ، أنى أطلقت اسمه على برنامج يومى كنت أكتبه للإذاعة ، هل تأذن لى بعد ذلك فى توجيه نفس السؤال إليك . وإن كنت قبله أريد أن أعرف لماذا تفكر فى هذا الموضوع الآن ؟ .

قال توفيق الحكيم : إنى أفكر هذه الأيام فى هذا الموضوع ، لأن العلم أثر فى حياة الإنسان الحديث وحاضره من كل جانب ، ونحن لا نستطيع أن نقف بمعزل عن تلك الثقافة الجديدة التى تهب علينا ريحها من العالم المتقدم كأنها الأعاصير العاتية ، بل لابد لنا من تركيبة جديدة نكون مزيجا من تراثنا الأصيل مع عناصر العصر الحديث الذى نعيش فيه ، حتى نكون عربا معاصرين ، نعيش أحداث العصر ولا نكون بمعزل عنه . وفى نفس الوقت لا ننسى أصولنا ولا ننقطع عن جذورنا .

ويستطرد توفيق الحكيم : إن البشرية سوف تواجه مع سنة ٢٠٠٠ تحديات أخرى ضخمة بالغة التعقيد . فمشكلة الطاقة مثلا قد كثر الحديث عنها فى السنوات الأخيرة ، كخطر يهدد التقدم الإنسانى إذا لم يتم التوصل إلى إيجاد حل لها . أما فى المستقبل فمن المؤكد أن موارد جديدة للطاقة سوف تظهر وتستخدم مثل الطاقة الشمسية والطاقة النووية وغيرهما من الطاقات الناتجة عن التكنولوجيا الحديثة . وهذه الموارد الجديدة للطاقة ، والتى لم تستخدم فى حياتنا استخداما واسعا ، من المؤكد أنها ستؤثر فى أسلوب حياة الإنسان تأثيرات بالغة ، وتؤثر فى حياته اليومية بصورة مباشرة ، بل سوف يمتد هذا التأثير إلى أفكاره وقيمه ومعتقداته . .

قلت له : وهل تعتقد أن اعتماد الإنسان المتزايد على الطاقة والآلة يمكن أن يؤدى فى المستقبل إلى نمط معين من الحضارة . يستطيع أن نطلق عليه حضارة الإنسان الآلى ؟

قال توفيق الحكيم : لا شك أن الاعتماد المتزايد على التكنولوجيا الحديثة التى ذهبت فى تأثيرها إلى مدى بعيد فى حياة الإنسان ، لا شك أن ذلك سوف يقضى على مورد آخر للطاقة أهمله فى حياتنا المعاصرة هو الطاقة الناتجة عن عضلات الإنسان . فالإنسان الحديث أخذ يعتمد على القوة الميكانيكية للآلات فى كل شىء حتى أبسط الأشياء ، وهذه القوة الميكانيكية تحتاج إلى طاقة لتأدية العمل . ويكون نتيجة ذلك تضاعف استهلاك الطاقة بصورة رهيبة . حتى فى البلاد النامية نجد أن استهلاك الكهرباء – وهى صورة من صور الطاقة – يزداد بسرعة . وسوف يتضاعف عدة مرات إلى نهاية هذا القرن .

معنى ذلك أن الطاقة البشرية تتراكم باستمرار ، ولا تعمل إلا فى نطاق ضيق جدا . بينما تحل محلها طاقة الآلة . وتكون نتيجة هذا الكسل البشرى الذى ليس له مثيل فى التاريخ . هى أننا ينبغى إن نتوقع أن حضارة القرن القادم سوف تكون حضارة الإنسان الآلى .

وتمضى لحظات صمت يطلق فيها المفكر الكبير نظرة تأمل . كأنه يعبر بها الزمان والمكان إلى قرن آخر لم يأت بعد . ويستطرد قائلا : إنه لأمر مرعب أن نتصور أن حضارة القرن المقبل سوف تكون حضارة الإنسان الآلى . إن حضارة ذلك تأكل ليس فقط فى الاستهلاك الرهيب لموارد الطاقة والموارد الطبيعية . بل فى تهديد سلامة النوع البشرى بكل قدراته الجسمانية وخصائصه الخلقية .

سعى أن نعمل من الآن على تكوين انسان القرن القادم تكوينا جديدا يكفل له الاعتماد على الآلة فى حدود الأعمال التى تعجز قواه الطبيعية عن أدائها ، حتى لا تسيطر عليه الآلة وتقيده بل وتهدد سلامة جسمه البشرى ذاته .

***

ولم يقف تأثير الثورة العلمية عند حد التأثير فى حياة الإنسان وقيمه . بل إنه امتد – فيما أعتقد – إلى الأفكار الأساسية التى كان النظام الاجتماعى يستقر عليها مستريحا مطمئنا . وشهدت المجتمعات المتقدمة ، وبالذات فى أوربا وأمريكا الشمالية ، اهتزازات واضحة فى تلك الأفكار ، وأهمها : الدين .

لقد أصبح الدين – فيما أظن – فى حاجة إلى اجتهادات جديدة تواثم بين المعتقدات الدينية السائدة والحقائق العلمية الجديدة المتفجرة كالقنابل كل يوم وأظهرها غزو الفضاء واقتحام أسرار الكواكب والنجوم ، والتطلع إلى التحكم فى الكائنات عن طريق الهندسة الوراثية ، بل السيطرة على الحياة ذاتها . .

تلك هى – باختصار شديد – مشكلة الدين فى عصر الثورة العلمية الحديثة . كما أتصورها . . !

ثم قلت للمفكر الكبير توفيق الحكيم : إذا كنت قد استطعت أن أبلور المشكلة على النحو السابق ، واتفقنا على ذلك . فكيف يمكن – فى رأيك – أن تقوم العلاقة بين الدين والعلم ؟

قال توفيق الحكيم : إننى أتفق معك فى أنه لابد من اجتهادات جديدة تواثم بين المعتقدات الدينية والعلم الحديث ، بل إن هذه القضية يجب أن تكون فى قائمة المسائل المتعلقة بسنة ٢٠٠٠ . وقد يكون لكلمة « الدين » وكلمة « الله » عند بعض رجال العلم من المعنى والمدلول ما يختلف عما عند رجال الدين . وخاصة فى القرن الماضى عندما اتجه العلم إلى الاتجاه الفلسفى الذى أطلق عليه المادية العلمية ، معتمدا على نتائج للعلم لم تكن مكتملة بعد . مما جعل بعض العقول تستنتج خطأ عدم وجود الله . غير أن وجود الله خالق هذا الكون لا يمكن إثباته . كما لا يمكن نفيه بالعلم . . لأنه الحقيقة الأبدية والمطلقة فى الكون . .

ويضيف توفيق الحكيم : إننى لا أعتقد أن هناك أى تناقض بين العلم والدين ، فهما فى علاقة أحدهما بالآخر ، كما رد عالم الفيزياء الكبير « الفريد كاستلر » الحائز على جائزة نوبل عن أبحاثه فى المادة والضوء يعتبران متكاملين وليسا متعارضين ، فالعلم والدين كل منهما تتحدد طبيعته طبقا لخطة مختلفة فى مجال النشاط الإنسانى المعنوى . فالعلم مجاله المعرفة وميدانه دراسة الوقائع المتراكمة أمام حواسنا . أما الدين فمجاله الإيمان . وعلى ذلك فإننى أعتقد أن الدين يمكن أن يرسخ ويتدعم مع التقدم المذهل الذى يحققه العلم فى كل مجال . إذا ظهرت اجتهادات جديدة كما قلت . تواثم بين المعتقدات الدينية والحقائق العلمية .

ويستطرد قائلا : إن هذه قضية بالغة الأهمية والخطورة . ويجب أن تكون فى قائمة المسائل المتعلقة بسنة ٢٠٠٠ . ويجب أن يدلى أصحاب الفكر والرأى بدلوهم . لأنها تمس صميم وجدان وضمير الإنسان .

***

والروح المرحة لتوفيق الحكيم تضفى دائما على الحديث طابعا مميزا من البهجة والسعادة .

حدثنى مرة عن قصته مع الحمار ، وماذا يمكن له كل هذه الألفة الشديدة ، حتى إنه اتخذ رمزا فى كثير من كتاباته ، وأطلق اسمه على بعض كتبه . لقد تخيلت نفسى وقتها أمام عمل فنى رائع ، لو قدم فى مسرحية أو تمثيلية أو فيلم سينمائى لكان من أنجح الأعمال الكوميدية الساخرة .

وكثيرا ما كان توفيق الحكيم – على سبيل المداعبة – يتهم أنيس منصور بالبخل . وكنت أؤكد له أننى أعمل معه عن قرب ولم ألمس فيه هذه الصفة أو حتى بعض ملامحها ، فكثيرا ما دعا أسرة تحرير الجلة إلى حفل غداء أو عشاء فى أحد الأماكن العامة الراقية ، وعلى الفور كان يبادرنى توفيق الحكيم قائلا : أبدا إننى لم أره إلا مدعوا فقط ، ولم أره داعيا على الإطلاق .

ومنذ أيام فاجأنى توفيق الحكيم قائلا : أريد أن أؤكد لك صحة قولى . هل تصدق أننى وجدت اسم أنيس منصور فى كتاب البخلاء للجاحظ ؟

قلت له : وهل كان أنيس منصور قد ولد أيام الجاحظ حتى يعرفه ويكتب عنه ضمن بخلاء كتابه الشهير .

قال توفيق الحكيم : إننى أحقق هذه الأيام كتاب البخلاء للجاحظ ، وقد وجدت فيه اسم أحد هؤلاء البخلاء ، وقد طمس الاسم الأول ولم أستطع أن أتبينه تماما ، وبقى الاسم الثانى وهو « منصور » ، ولذلك فإننى أرجوك أن تبلغ « أنيس منصور » ضرورة عمل حفل غداء أو عشاء فاخر تأكيدا لكرمه ، وإلا كتبت اسمه ضمن بخلاء الجاحظ .

وضحكنا كثيرا . .

ولم يتوقف الحوار . .

يبقى دائما توفيق الحكيم واحة خضراء نهفو إليها النفس من وقت لآخر ، بعد رحلة قاسية وسط صخور الحياة ورمالها الملتهبة . وجزيرة أمان يستقر على صدرها العقل ، وينطلق من فوقها الفكر متأملا متجددا إلى كل الجهات .

جزيرة حب راسخة وسط بحر الحياة العاتى المتلاطم الأمواج . . هكذا دائما توفيق الحكيم . .